

تخطيط القصور في الجنوب الغربي الجزائري

- مقارنة سوسيو تاريخية -

Planning of the Ksour in southwest Algeria

- Socio-historical approach -

د. سباعي سيدي عبد القادر 1

جامعة طاهري محمد - بشار

kadasebai@gmail.com

د. برشان محمد

جامعة طاهري محمد - بشار

medberchane08@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2021/07/29 القبول 2022/01/20 النشر على الخط 2022/05/10

Received 29/07/2021 Accepted 20/01/2022 Published online 10/05/2022

ملخص:

ركزت دراسة المستكشفين الأوروبيين للقصور الصحراوية في الجزائر على الجوانب الاجتماعية والحياة داخل القصر كالعادات والتقاليد دون التطرق لتاريخ عمارة القصر وعمرانه. وأهملت الأبعاد الحضارية والاقتصادية في تخطيط تلك القصور، وبخاصة أنها تمثل معلما معماريا يُسائر البيئة الصحراوية، ويتمشى ومناخها الحار. وغني عن البيان أنّ هندسة القصر الصحراوي خضعت لنمط تفكير قاطنيه وظروفهم المعيشية والاجتماعية، وطبيعة المواد الأولية التي تمكن من تشييده من جهة، وحالة عدم الاستقرار الأمني والسياسي التي عاشتها الصحراء خلال فترة الحكم الطبيعي للقبيلة أو ما اصطلح على تسميته ب: السبية أو مرحلة اللادولة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: القصر - الصحراء - الأمازيغ - القبيلة - المسجد .

Abstract:

The study of European desert Ksour explorers focused on social aspects and life within the Ksar, such as customs and traditions. The architectural and town-planning history of Ksar has been omitted. Their studies neglected the cultural and economic dimensions in the planning of these Ksour. Especially since the latter represent an architectural landmark in harmony with the desert environment and climate. It goes without saying that the architecture of the Ksar is subject to the reflection of its inhabitants and their social living conditions, also to the nature of the raw materials used on the one hand, and the security instability of the Sahara during the period of "Saybah" or the non-state stage on the other hand.

Keywords: Ksour, Sahara, the tribe, Amazigh. the mosque.

مقدمة:

يكسي التراث العمراني أهمية تاريخية، حضارية، وثقافية في حياة المجتمعات البشرية، وتعد القصور والقرى الجبلية أهم عناصره، فإضافة إلى عناصر الفن، التميز والإبداع، والأصالة فقد أضحت القصور عناصر جذب سياحي مهمة للاستثمار. وغني عن البيان أن تخطيط العمران يقوم على تصورات قبلية تقترح حلولاً تقنية لمشكلات آنية ومستقبلية للمدينة يتم استخلاصها عن طريق التوقع بعد التحليل والمعاينة، ومن ثم "كان تخطيط القصر مقارنة استشرافية للمستقبل".

كما أن القصور والقرى الجبلية نشلت من تجمع للسكان بحكم الطبيعة الجماعية التي تتطلب ذلك، ومن ثم فإن التمدن كظاهرة اجتماعية بالمفهوم الخلدوني هي من صنع المجتمع، وبوحي من العقل الجماعي. فما هي المعطيات المؤثرة في تخطيط وتصميم قصور الجنوب الغربي الجزائري؟ وما المعايير المعتمدة في اختيار مواقع تلك القصور؟ وهل كان هناك تأثير للجانب الاجتماعي على الإطار الفيزيائي للتخطيط العمراني؟

1. الإطار الجغرافي لموضوع الدراسة

تمتد منطقة الجنوب الغربي الجزائري من جبال القصور التي تشكل حلقة من سلسلة الأطلس الصحراوي شمالاً إلى الحدود مع موريتانيا ومالي جنوباً، ومن العرق الغربي الكبير وهضبة تادميت شرقاً إلى الحدود مع المغرب والصحراء الغربية غرباً. يتكون الجنوب الغربي من الأقاليم التالية: إقليم قصور الشمال، إقليم الساورة، إقليم توات⁽¹⁾، وتطلق تسمية توات على الواحات الواقعة جنوب الساورة وهي على شكل هلال، يمتد على طول 400 كلم وبعرض 60 كلم⁽²⁾، وتتكون بلاد توات من ثلاث مقاطعات كبرى: - قورارة - توات - تيديكالت.

على امتداد منطقة الجنوب الغربي تنتشر شبكة من القصور القديمة تعود لفترات مختلفة ومتباعدة من الزمن لكنها تتقاطع في كونها تحمل طابعاً عمرانياً مماثلاً سواء في التخطيط واستغلال الفراغات أو في أساليب البناء والتعمير. يفوق عدد تلك القصور 380 قصراً، ويتواجد أغلبها ببلاد توات الذي يشكل أرخبيلاً من القصور.

2. مفهوم القصر

إنّ القصور تُسمى بالأمازيغية إغمران "ومفردها "إغرم" أو في بعض المناطق "إغرام" أو "أعزّم" كما يطلق على القصر بإقلي مثلاً تباديت، فالقصر يُميز البيئة الصحراوية، وهو يُمثل الهيكل العمراني لمجموعة من الناس تجمعهم رابطة الدم والقرابة والعقيدة اجتمعت حول موارد أساسية للقيام بمهمة حضارية متبادلة. فهل ترقى هذه التجمعات السكانية إلى معنى المدينة أم أنها مجرد قرى وتحصينات وُجدت لدواع أمنية؟ ذهب غوتي- "Gautier" بعيداً في تحليله لظاهرة القصور الصحراوية إلى حدّ التأكيد بأنه لا يمكن

1- يُشكّل إقليم توات جزءاً مهماً من الصحراء الإفريقية الكبرى، وهو يقع في أقصى الجنوب الغربي الجزائري على خطي طول 4° شرقاً و3° غرباً، وبين دائرتي عرض 25° و30° شمالاً. يُمثل هذا الموقع امتداداً طبيعياً لمنخفض تنزروفت نحو الشمال، ويتربع الإقليم على مساحة تزيد على ثلاثة آلاف كلم². يحده العرق الغربي الكبير ووادي أمقيد من الشمال، وهضبة تنزروفت وجبال مويطرة جنوباً، ويحده من الشرق العرق الشرقي الكبير، ووادي مسعود غرباً. ينظر: - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، جامعة الجزائر، 1977 ص. 3.

2 - Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, Tome XVIII ; ORAN, Imprimerie Typographique et Lithographique L.FOUQUE, 1898, 383 p. (p 264)

اعتبار القصر مجرد قرية بل مدينة مبنية بالطوب⁽¹⁾. في المقابل اختلفت المصادر الإسلامية في وصف هذه التجمعات السكانية فهي مجرد حصون عند البكري ونستشف ذلك من وصفه لورقلة "ورجلان" حيث يقول: "... فإن أردت تادمكة إلى القيروان فإِنَّكَ تسير في الصحراء خمسين يوما إلى ورجلان وهي سبعة حصون للبرابر أكبرها يُسمى أغرم أن يكامّي أي حصن العهود..."⁽²⁾ وفي وصفه لقصور توات عندما زارها قادما من بلاد السودان الغربي، وحلّ بها في سنة 754هـ/ 1353م يقول ابن بطوطة في رحلته: "... ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر، أهل لثام... ثم وصلنا إلى بُودا وهي من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباح، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة"⁽³⁾.

يمكن تحديد مصطلح القصر في الصحراء بأنه عبارة عن قرية أو تجمع سكاني تُحيط به الأسوار، وهو بمثابة الوحدة السكنية لكل واحات المنطقة الصحراوية، حيث تُشكل البنايات تجمعا مُتماسكا في شكل تراكمي بداخل القصر محاط بالأسوار العالية من كل جانب، تشكل في العادة سلسلة متصلة من الجدر العالية ذات ارتفاعات مختلفة تتراوح ما بين 5م إلى 7م، ويُقدر سُكُكها ما بين 40-80 سم⁽⁴⁾. غالبا ما تكون الأسوار في شكل مربع، وتتوفر على مدخل واحد فقط، ويقسم سكانه داخل القصر في مساكن مزدحمة تتكون من طابقين أو ثلاثة مبنية بطوب من الطين، ويوجد القصر دائما قرب منابع المياه، ويقوم السكان فيه بفلاحة الأرض المحيطة به. لم يكن هذا النوع من البناء معمولا لصد الهجمات الخارجية فحسب بل لاستغلال الموارد الاقتصادية المتاحة إلى الحد الأقصى. أمّا عدد سكان القصر فهو قليل ويتناسب مع الموارد الفلاحية التي يملكونها، ويعتبر الوحدة الفلاحية المكتفية بذاتها.⁽⁵⁾

يأخذ القصر تسميات متنوعة كأن يُنسب إلى الجد الأوّل الذي تنحدر منه القبيلة، أو إلى الولي الصالح الذي كانت له مكانة علمية في وسط القبيلة، أو قد يكتسب تسميته من الواجهات الجغرافية التي تُحدد موقعه كأن نقول: القبلي "الجنوبي" أو الظهراني "الشمالي". كما تنسب بعض القصور إلى المكان الذي تقع فيه أو حدثته أو صغره أو كبره مثل: التحتاني، الفوقاني، القدم، الجديد، الكبير، الصغير... وعلى العموم فإنّ غالبية هذه القصور تحمل أسماء أمازيغية: تفلقوت، تمطيط، تاغيث، تيوت، تسايت، أولف، أقبلي، أوقروت... ومن الميزات التي تنفرد بها القصور الصحراوية أيضا وقوعها فوق مناطق مرتفعة أو سفوحها، أو على هضبات صخرية صلبة تسهل عملية الدفاع عنها من جهة، وتمكن سكانها من استغلال عنصر الماء وتوزيعه بطريقة مضبوطة ومحكمة من جهة أخرى.

1 - Gautier, E.F, Le Sahara, Payot, Paris,1923,P.174.

2- البكري، أبي عبيد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ص.182.

3- ابن بطوطة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2، المطبعة الأزهرية، القاهرة ط1، 1928، ص.205-206.

*- كما ذكرها بن خلدون عندما تحدث عن قصورها التي كانت في زمنه(783هـ/1381م) تناهز المائتين قصرا، وأنّ قصور تيفورارين كانت تقارب المائة قصر يومها. وقال أيضا بأنّ: "...فواكه بلاد السودان تأتي من توات وتيكورارين ووركلان.." يُنظر: *- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد، كتاب تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج1، دار الكتاب اللبناني، لجنة البيان العربي، بيروت، لبنان، 1981، ص.93.

4- Memmeson (E),« Ksour du Tafilalt », Revue de Géographie du Maroc.N° 08 (1965)pp.87.92.

5- روس أ.دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912، ترجمة أحمد بوحسن، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006، المغرب، ص.113.

3. المقاربة التاريخية

من خلال دراسة الرسوم والصخور المنقوشة وتحليل رموزها التي تظهر على شكل سلسلة من الحيوانات، والأدوات المستعملة من قبل الإنسان القديم، وكذا بعض الكتابات الأمازيغية المنتشرة في عدة مواقع أثرية من المنطقة تكشف كلها عن عمق التعمير البشري وتجذره في تاريخ منطقة الجنوب الغربي الجزائري.⁽¹⁾

ربط الباحثون والمستكشفون الأوروبيون تلك النقوش الصخرية بفترة العصر النيوليتي وتحديدًا الفترة الأخيرة منه، من ذلك ما أشار إليه قرال "Gsell" في كتابه: «التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية» من تأثير المناخ المباشر في عملية التوطن والاستقرار البشري، حيث ذكر بأن المناخ الرطب والمطير الذي عرفته حواف الأطلس الصحراوي خلال العصر النيوليتي.^(*) خصوصًا تلك المناطق الواقعة على الدلتا الممتد من وادي زوزفانة ووادي قير كان عاملاً مساعداً على كثافة الغطاء النباتي، وانتشار الأحواض المائية والمستنقعات. ومن ثمّ تهيأت ظروف وشروط الاستقرار للكائن الحي ويتجلى ذلك بصورة واضحة في صور الحيوانات المنقوشة على الصخور بأشكال مختلفة منها الفيلة والبقر الوحشي والزرافة.

انطلاقاً من ذلك فإنّ قرال "S. Gzel" يعتقد أن التعمير البشري للمنطقة تمّ منذ العصور القديمة، حتى وإن لم تتم عملية ضبط الفترة الزمنية المحددة لبداية التعمير البشري لكن المؤشرات الأثرية تشهد على عمقها وتجذرها في التاريخ البشري، وتمتد من فجر التاريخ إلى زمن أعلى منه. ووجود الإنسان كان مرتبطاً بوجود النباتات والحيوانات التي شكلت محور حياته، وغذائه الأساسي في الحياة. هذه النظرية تجد ما يدعمها ويؤكد مضمونها من الدراسات والبحوث الأخرى الخاصة بالمنطقة، من ذلك ما نجده مثلاً في التقارير العلمية والميدانية التي قام بها غوتي "Gautier" من خلال دراسته للكراكير "Tumulus" المنتشرة في المواقع الأثرية، وما تضمنته من قبور تبرز بأشكال وصور فنية راقية، حيث يرجع "Gautier" تاريخها إلى مرحلة ما قبل ظهور الإسلام، ويربط أصولها بالمهارة والتقنية الأمازيغية في عملية التصنيع، ويخلص في النهاية إلى أنّ بلاد الصحراء عمرت من قبل الأمازيغ منذ العصور القديمة.⁽²⁾

1- هذه النقوش الصخرية جلبت اهتمام الكثير من الباحثين والمستكشفين الفرنسيين نذكر من بينهم: فلامو ند. Flamand, G.B.M والدكتور بوني BONNET.... هذا الأخير قام بجولة علمية استكشافية سنة 1889 جاب خلالها أماكن عديدة من المنطقة، وقدم دراسة مفصلة عن تلك النقوش الصخرية والتي لا يوجد اختلاف بميزتها عن الرسومات والصخور المنقوشة المكتشفة بشمال الجزائر، ينظر:

- Flamand, G.B.M, Les Pierres Ecrites, Graviers, et Inscription Rupestres Du Nord Africain, Paris, 1921, PP . 25-53.

*- يسمى كذلك العصر الحجري الحديث وهو آخر مرحلة من العصور الحجرية يتميز بجملة من السمات كظهور أدوات حجرية جديدة وتقنيات صناعة الأواني الفخارية لتخزين الحبوب بعد اكتشاف الإنسان للزراعة في هذا العصر بنهاية النيوليتي تبدأ العصور المعدنية عصر النحاس والبرونز وبالتالي تكوين الحياة القروية، ينظر:

- Jacquot (F), Expédition Du Gle Cavaignac dans le Sahara Algérien ; Guide et Baudry , Librairie, Editeur, Paris, 1849. P.239. Voir aussi :

- Gourham (André le roi) Dictionnaire Préhistoire, Presses Universitaires De France, Paris, 2005, P.775.

2- Gautier, E.F, Le Sahara Oranais, Annales De Géographie, V.12, B.S.G.A.O, 1903. P. 87.

إنّ هذه الأدلة المتوفرة والتي تزخر بها القصور الصحراوية كقصر تيوت الواقع بـجبال القصور حيث تشهد الرسومات والصخور المنقوشة⁽¹⁾ المكتشفة من قبل الدكتور جاكو "Jacquot" بتاريخ 24 أبريل 1848 أثناء حملة الجنرال كافينيّاك "Cavaignac" على معايشة أجزاء من المنطقة لعصر النيوليتيك، وأنّ التضاريس العامة لجغرافيتها تُشكل جزءاً من كتلة الأطلس الصحراوي المعروف بـجبال القصور، والتي يعود أصلها إلى الزمن الجيولوجي الثاني، فترة الجوراسي.

يُضاف إلى ذلك ما تكتنزه قصور القنادسة والمرحومة بني عباس وجرف التربة بإقليم الساورة، وقصور توات من مخلفات أثرية، رسومات، حفريات، وكهوف. وغيرها من الشواهد تكشف للباحث عن درجة التحضر التي بلغها الإنسان الذي عمر المنطقة منذ بداية تكوين المجتمعات البشرية. ومن ثمّ ندرك بأنّ مؤشرات الحضارة كانت مُبكرة بالمنطقة، والتي تُصنّف ضمن أقدم المناطق تعميراً في العالم بحكم مُلائمة المناخ وتوفر شروط الاستقرار والتوطن.

تتفق معظم الدراسات التاريخية التي أرّخت للتعيمير البشري بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري خاصة الغربية منها على التقسيم التاريخي التالي ونخص بالذكر الباحث الأثري J.C Échalier الذي قام بجولة استطلاعية لإقليم توات سنة 1969، والرائد Martin A.G.P H الذي عمل مترجماً في الجيش الفرنسي، اعترف في كتبه بأنّه أثناء تواجده بتوات استولى على عدد كبير من المخطوطات الثمينة نشر بعضها في كتابه : واحة الصحراء سنة 1908، وله كتاب آخر بعنوان: أربعة قرون من تاريخ المغرب.⁽²⁾

تعد القبائل الأمازيغية خاصة منها قبائل زناتة من الطلائع الأولى للتجمعات البشرية التي استقرت بالمنطقة، وتوزعت فروعها على أجزاء واسعة من بلاد المغرب وكانت قبائل بني واسين وبني بادين أكبر بطون زناتة، ومن أكثر فروعها انتشاراً وتواجداً بالمنطقة الصحراوية، " فاحتطوا فيها القصور... واتخذوا بها الجنان من النخيل والأعنان وسائر الفواكه".⁽³⁾ أما قبائل الجيتول التي تحمل بشرة بيضاء فكان نزوحهم إلى الصحراء اضطرارياً ومؤقتاً.⁽⁴⁾

إنّ التطور التاريخي للمنطقة عكس تنوّعا في هندسة وتخطيط القصور، ومن ثمّ يجب التفريق بين القصور التي بُنيت قبل وبعد المرحلة العربية الإسلامية، ويظهر ذلك الفرق في: موقع القصر أو القصبة، موقع القصبة من القصر، مركزية المسجد، ثقافة تخطيط

1- يعود تاريخها إلى 4000 سنة ق.م تشمل حيوانات مختلفة كالفيلة، الزرافات... تنتشر هذه الرسومات في أجزاء واسعة من منطقة الجنوب الغربي الجزائري مما يدل على أنّ المناخ السائد آنذاك كان أكثر رطوبة. أنظر:

- Jacquot (F), Expédition Du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien Guide et Baudry librairie, Editeur Paris, 1849. P.226

2- Martin, A.G.P H, Les Oasis Sahariennes, challamel. Paris, France, 1908. pp25.29

3- ابن خلدون، عبد الرحمان، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج2، دار ابن حزم، بيروت، 2004. ص.2330.

4- الجيتول قبائل أمازيغية عاشت في شمال إفريقيا خلال العصور التاريخية القديمة، رفضوا الخضوع تحت لواء الملك يوبا الثاني، وقاوموا الزحف الروماني في بلاد الأمازيغ. بل وشاركوا إلى جانب الملك يوغورطة في ثورته ضد إمبراطور روما سنة 107 ق.م. يرى غوتي "Gautier" بأنّ قبائل زناتة هم أحفاد الجيتولين القدماء، بينما يعتقد آخرون بأنّ زناتة وصنهاجة يشكلان معا الجيتولين. ينظر: - الجليلي، عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الثقافة العربية، بيروت، 1980، ص.69.

القصور وخصوصيتها الاجتماعية. تظهر لنا خبرة الأمازيغ ومعرفتهم للمنطقة من خلال بناء وتخطيط القصور في مناطق مرور القوافل التجارية تحقيقا لعملية التبادل التجاري، حيث يتم تزويد هذه القبائل بما تحتاجه من منتوجات، لتصبح في الوقت ذاته مركزا مهما لهذه القوافل خصوصا في القصور المعروفة بـ: "قصور الوكالات التجارية الصحراوية Ksour Caravane sérails". لعبت القصور دورا اقتصاديا ووفرت حماية للقوافل التجارية "مركزية تجارية"، ومن ثم كانت فضاء مفتوحا للتواصل الثقافي مع المحيط الخارجي .

كان للعوامل الطبيعية والجغرافية أثرا واضحا في اختيار أماكن بناء وتخطيط القصور باعتبار أنّ الموقع الطبيعي هو مجموعة من التوجيهات والعوائق المفروضة على التجمعات السكانية وهي مركبة من المعطيات التالية: المناخ، الطبوغرافيا، الهيدروغرافيا. يتوفر الموقع على مواد البناء التي تُعطي الصفة العامة للقصر (الطين والحجارة، النخيل والأشجار الجبلية: العرعار..) ونتيجة لذلك فإننا نُميز ما بين أنواع القصور :

القصور	خصائصها
القصور الجبلية	شُيد هذا النمط في منطقة مرتفعة لتحسين التجمع السكاني من الاعتداءات الخارجية فهو تحصين طبيعي. ينتشر بكثرة في منطقة جبال لقصور مثل قصور: الصفيصة، عسلة، ...
قصور الواحات	تقع في قلب الواحة، يرتبط غالبيتها بالقبائل العربية التي انتشرت في المنطقة مع بداية القرن 12 م/6 هـ، قصر بني عباس بإقليم الساورة الذي تقطنه قبائل الغنائمة وهم من عرب المعقل الوافدة من شبه الجزيرة العربية خلال فترة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب. ⁽¹⁾ ...
قصور الوادي	كان استقرار الإنسان فيها يعتمد على الأودية والأراضي الخصبة المحاذية لها من أجل تأمين حياته الاقتصادية. ينتشر هذا النوع من القصور في إقليم الساورة. مغرار التحتاني، تيوت، إقلي....
قصور العرق	ينتشر هذا النوع من القصور داخل العرق نفسه، وكان يعتمد على غرس النخيل في أماكن قريبة من تركز المياه الباطنية حيث تسهل عملية حفر الآبار لاستخراج المياه عن طريق الخطارة، مثل واحات ترحوزي على بعد 60 كلم بوسط العرق الغربي
قصور السبخة	يتواجد هذا النوع من القصور على حواف السبخة باعتبار أنّ الانخفاض يمثل مكان تجمع المياه القادمة من الأماكن المرتفعة، ومنها قصور قورارة .

1- De Lamartinière et N.Lacroix, Documents Pour Servir à L'Etude du Nord-Ouest Africain, Imprimerie La Maison, L.Daniel, de Lille, 28 Février 1896, Tome 2, p. 585.

يرى غوتي Gautier بأنّ هذا النمط السكاني يعود بأصوله إلى القبائل الزناتية، وميّز بين الفن المعماري لدى الأمازيغ البتر أي فن قبائل زناتة، وفنّ معمار الأمازيغ البرانس أي الفن الصنهاجي الخاص بمنطقة "القبائل" التي تسكن جبال الأوراس بالمغرب الأوسط، وذكر بأنّ المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق في حين أنّ المنزل القبائلي يتكون من سكن أرضي فقط. ومن جهة أخرى يرى LeWicki بأنّ الفضل في ظهور هذا النمط السكاني بالمناطق الصحراوية يعود إلى قبائل زناتة لأنّها هي التي أنشأت أغلب واحات المناطق الصحراوية كواحات سوف، وادي ريغ، ورثلة تيدكلت وتوات⁽¹⁾.

على الصعيد الأمني فيلج جانب الأسوار العالية المحيطة بالقصر من كل جوانبه لا يخلو أي قصر من وجود أبراج للمراقبة والحراسة تتخذ في شكلها الهندسي شكل الدائرة، فأغلب قصور الجنوب الغربي محاطة بأسوار وأبراج تختلف من حيث الارتفاع والسّمك بين قصر وآخر تبعاً لأهمية كل قصر. علاوة على الحماية المادية للأسوار فهي تمثل حسب المفهوم الإسلامي حداً رمزياً لحرمة الفراغ، كما تعتبر من المعايير الحضارية.

ومثال ذلك قصر إيغلي الذي بني على أرض مرتفعة قليلاً تبعد بحوالي كيلومتر جنوب شرق مكان إلتقاء واد غير وواد ساورة، ويرتفع صور القصر بـ 6 أو 7 أمتار، وعلى إرتفاع 1.50م من الأرض بني الصور بالحجارة والباقي بالطوب وكذلك البيوت، في وسط القصر نجد ساحة تقريباً دائرية الشكل تنطلق منها الشوارع نحو مختلف الأحياء، ويوجد بالقصر بابان، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب يربطهما الشارع الرئيسي، والمسجد يوجد في منتصف الطريق ما بين الباب الشمالي والساحة، ونجد به بئراً على عمق 15م والتي تكفي مياهها السكان في حالة الحصار².

بعض القصور التي تنعدم بها الأسوار بُنيت على مرتفعات جبلية، ورغم ذلك يُلاحظ استخدام الجدران الخارجية للمساكن كأسوار والتي يتراوح ارتفاعها بين 3م.6م ولها قاعدة عرضتها يقارب 2م تتناقص إلى أن تنتهي في الأعلى بـ 50 سم تقريباً. وهناك قصور أخرى بُنيت على منخفضات كقصر القنادسة لم يكن يتوفر على سور دفاعي يقوم بدور الحماية للسكان من الغارات الخارجية، ربما يعود ذلك إلى وجود مقر الزاوية الزيانية بهذا القصر، وهي التي كانت تتمتع بهيبتها وسلطتها الكبيرة بين القبائل. وفي هذا الصدد يقول صاحب مخطوط منهل الضمان واصفاً قصر القنادسة: "...وليس في جبل ولا في وعر..."⁽³⁾.

4. المقاربة الاجتماعية

تبرز خصوصية وهوية القصر وعلاقات أفرادها من خلال القوانين الاجتماعية التي تنظم حياتهم داخل القصر. كما تظهر تلك الخصوصية أيضاً في جملة من المنشآت الدينية والعسكرية التي تبرز الجمال العمراني لشكله وهندسته.

1.4. نظام الجماعة أو "تجماعت"

1- حسن حافظي علوي، سجل ماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1997، صص. 113-119.

2 - Lacroix Napoléon et La Martinière Henri Poisson de, Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain, Tome II, (Le Sud ouest Algérien et les regions Limitrophes :Figuig-L'Oued Guir-L'Oued Saoura, Maison L.Danel, Lille, 1896, 960 pages.p 715.

3 - التازي علي عبد القادر، منهل الظمان ومزيل الهموم والكرب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا محمد بن أبي زيان، مخطوط موجود بخزانة الزاوية القندوسية ولاية بشار، غير مصنف، ص. 76.

لا يوجد اتحاد أو سلطة عليا تدير الواحات، فالسلطة المحلية لها صلاحيات غير محدودة، ففي الواحات التي يقطنها الأمازيغ تعود فيها السلطة للجماعة، أما في القصور التي يغلب عليها العنصر العربي فالسلطة فيها بيد الأشراف أو شيخ الزاوية أو الإمام¹، وهذا النظام السياسي هو نفسه في كل الصحراء، فكل القصور تدير بمجالس ديمقراطية " الجماعة" ²، وهذا ما يميز سكان القصور على الصعيد الاجتماعي هو التكتل في حياة اجتماعية مندمجة تسهر على تسيير شؤونها وتنظيم شبكة العلاقات فيها هذه الجماعة التي تمثل سكان القصر، فنظام " الجماعة" أو "تجمعات" بالأمازيغية وهي بمثابة المجلس الاستشاري للقبيلة، وكانت الجماعة تبث في المسائل التالية:

- تقسيم الأراضي الفلاحية، وتنظيم الري الفلاحي الذي كثيرا ما تنشب عنه نزاعات بين الفلاحين خاصة في القصور.
 - تشكيل القوافل التجارية، واختيار العناصر التي تتكفل بتوفير الحماية لها خاصة تك القوافل التي كانت تسلك الطرق الصحراوية.
 - كما كانت الجماعة تقرر في مسائل الزواج، الطلاق والميراث، وكذا الفصل في النزاعات وتمثيل القبيلة في مختلف المناسبات.
- بالإضافة إلى ذلك كان مجلس الجماعة يث في مسائل الحرب والتحالف، حيث كان القصر الذي تهدد أو تعرض إلى هجوم مباشر، تلجأ الجماعة إلى عقد جلسة طارئة لمناقشة المستجدات، وفي الغالب يتخذ قرار الحرب بالإجماع عن طريق عملية التصويت، وعند تبني قرار الحرب ينتخب القائد الذي عادة ما يكون حكمه مطلقا وبدون نقاش، حيث تحول له كامل الصلاحيات فهو الذي يملك حياة، أو موت المقاتلين المنضوين تحت قيادته .

2.4 - التعدد اللغوي

تعد الأمازيغية⁽³⁾ الأكثر تداولاً وانتشاراً في القصور والواحات التي يقطنها الأمازيغ، وهي عبارة عن لهجة تفتقر إلى قواعد تضبطها رغم اشتراكها مع اللغة في كونها وسيلة للاتصال مع الآخر. يقتصر استخدام " تمازيغت أو " تشليحت " بين سكان القصور، أما مع الأجانب يلجأ سكان القصور إلى استخدام العربية الممزوجة بكلمات أمازيغية، وهذا التداخل فرضته الظروف لتسهيل التعامل خاصة في الميدان التجاري، مع العناصر البشرية الأخرى خاصة البدو الرحّل، والتجار القادمين من المغرب. والأمازيغية بدورها فقدت بعض خصوصيتها الذاتية بفعل الاحتكاك الدائم باللغتين العربية والفرنسية⁽⁴⁾.

هناك تشابه كبير بين اللهجة الأمازيغية - تشليحت - المنطوقة في القصور وواحات الجنوب الغربي، وتلك الأمازيغية المستخدمة في إقليم ميزاب. بحكم الانتماء المشترك إلى قبيلة زناتة، إلا أنّ الفرق الوحيد يكمن في كون اللهجة الإباضية لها إنتاج أدبي، وتعرف

1 - Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, Tome XVIII ; ORAN, Imprimerie Typographique et Lithographique L. FOUQUE, 1898. 383p . (p266)

2 - Emile F. Gautier, Sahara Oranais, In: Annales de Géographie. 1903, t. 12, n°63. pp. 235-259.(p255)

3- يرى الكثير من المؤرخين أنّ اسم أمازيغ هو الاسم الحقيقي لسكان شمال إفريقيا وتعني الحر أو الشريف وأصله MZG وMKZ الذي نجده في كلمات Mazices الرومانية و Mascyces الإغريقية، وهو الاسم الذي يقبل به الأمازيغ Imazighen « كاسم محلي لهم بدل اسم البربر الذي ألصق بهم على يد الرومان والإغريق الذين أطلقوه على كل أجنبي عن حضارتهم. ينظر:

- Camps. les Berbères Aux Marges de L'Histoire. Ed. des Hespérides, 1980, p.150.

4 - Jeans Despois, «La Bordure Saharienne De L'Algérie Oriental », Revue Africaine, N° 86.1942. p.207.

استمرارية في استخدامها في التخاطب والاتصال بين سكان ميزاب، بينما بقيت لهجة قصور الجنوب الغربي وواحاتها موسومة في أفواه أهلها من دون إنتاج ثقافي، وهي تذوب شيئاً فشيئاً داخل التأثير العربي⁽¹⁾.

3.4- البنية الاجتماعية

تظهر في التنظيم الاجتماعي لسكان القصور بشكل جلي ظاهرة التراتب الاجتماعي وانقسام المجتمع إلى طبقات، وترتسم صورة هذا التراتب على شكل هرمي يضم الفئات الاجتماعية التالية: الأشراف، المرابطون، العوام، الحراطين، العبيد، وتختلف هذه الطبقات من حيث الوظيفة والنسب. فالتركيبة السكانية للمجتمع الصحراوي تكونت من العناصر التالية: - الأمازيغ - العرب - ذوي الأصول الأفريقية. وهذه العناصر على الرغم من تمايزها الإثني إلا أنها حافظت على وحدتها ووجودها وترابطها وتقاربها داخل القصر بفضل العوامل التالية: - العامل الديني - العامل الاجتماعي - العامل الاقتصادي.

وكل قبيلة تنسب إلى جد واحد بمعنى أن الرابطة التي تجمع بين أفراد القبيلة هي رابطة الدم - على الأقل من الناحية النظرية - فأفراد القبيلة هم بنو فلان من الناس. والكلمة المرادفة لكلمة "بنو" العربية هي "آيت" أو "آث" بالأمازيغية. وقد تباينت قوة وهيبة كل قبيلة حسب مكانتها وعلاقاتها والدور الذي تلعبه مع القبائل الأخرى، من خلال تخصصها في بعض الوظائف الاقتصادية، السياسية والدينية.

تبقى الرابطة الدموية الإحيائية أي القرابة بالرحم - النسب القريب - هي الأقوى في تحقيق التماسك الاجتماعي لدى سكان الصحراء، حيث يذوب الفرد في الجماعة. كما أنّ القرابة العائلية لا تمتد في أغلب الحالات خارج الأسوار.

5- تخطيط العمراني داخل القصر

1.5- تخطيط الأزقة

بالإضافة إلى ارتباط الأزقة بالمجالات السكنية وبالمؤسسة الدينية، وتكيف تصميمها مع المعطيات المناخية المناسب وحركة الشمس واتجاه الرياح فإنّ خصوصيتها تبدو في تفرع الشوارع الرئيسية إلى شوارع ثانوية ودروب معمقة تخصص لمجموعة من العائلات ذات النسب القريب. إنّ الطرق والأزقة داخل القصر قد تتسع أو تضيق بحسب الوظيفة التي تؤديها داخل المجمع السكاني، فالطرق الرئيسية تكون أكثر اتساعاً من الأزقة الثانوية أو الفرعية استجابة لضرورة التنقل السهل للمارة والحيوانات، وهناك أزقة ضيقة غير منفذة وهي عبارة عن دروب تقابلها مجموعة من البيوت التي كثيراً ما ينحدر سكانها من أسرة واحدة.

2.5- الراحات

لا يخلو أيّ قصر منها مساحات كبيرة غير مبنية من القصر، تشكل الراحات من الناحية الهندسية مجالا مفتوحا تنفس من خلاله شوارع القصر، ملتقى مجموع الشوارع والأزقة وغالبا ما تقع قريبا من المسجد. إنّ استعمال الأماكن الواسعة المفتوحة على الهواء

1- Basset René (M), Note de Lexicographie Berbère Extrait Du Journal Asiatique, 8^{ème} Série, Tome, 1886. p.316.

لاحظ "روني باسي" - Basset René بأنّ اللهجات التي يتحدث بها السكان الأمازيغ في منطقة الجنوب الغربي عموما ذات أصول زناينة، وهي متشابهة من حيث الكلمات ومخارج الحروف، ويرى أيضا بأنّ اللهجة الأمازيغية هي التي أثرت على بعض القبائل العربية التي استوطنت المنطقة. ينظر:

- Basset René, Op.cit. P.303.

الطلق في الفترة المسائية من الميزات الأساسية لسكان القصور حيث تتركز مختلف النشاطات. ⁽¹⁾ هي مجال للتفاعل الاجتماعي "حلّ النزاعات، تنظم الحفلات والأعراس، عقد الاجتماعات"، والتبادل التجاري والإعلامي. وتحقيق التواصل بين سكان القصر. كما تتكون غالبية القصور في المنطقة المدروسة من طابق أو طابقين حسب الحالة الاجتماعية ومقدرة مالكيها، جدرانها الخارجية عالية لتوفير الظلّ في الشوارع، تتميز ببساطة تخطيطها وخلوها من النوافذ الخارجية للحفاظ على أسرها، حتى وإن وجدت فتفتح في الجزء العلوي للجدران الخارجية أو على مستوى سقف الغرفة.

3.5- الشكل الهندسي للبيوت

رُعي في تخطيط القصور بالمنطقة مبدأ الفصل بين الغرف المخصصة للضيوف وبين بقية أجزاء المنزل، حيث يتوفر القصر على غرف لاستقبال الضيوف وعابري السبيل خاصة في القصور المعروفة بـ: "قصور الوكالات التجارية الصحراوية Ksour Caravanes sérails" وفي ذلك مؤشر على كرم سكان القصور ونلمس ذلك في كتب الرحلات، حيث يصف لنا أحد الرحالة هذه الخصلة في رحلته الحجية سنة 1737م في قوله: "ثم ارتحلنا من القنادسة ومررنا قرب الزوال بقرى بشار، فتلقنا أهله، وقرونا تمرًا جازاهم الله خيرا، وبلدّهم ذات نخل وتمر لا بأس به، ولكن الأعراب غالبية عليهم لا يطيب معهم مقام في تلك البلدة.... ثم مررنا بقرية واكدة... ماؤهم مجلوب بالفقاير، أكثر نخيلهم تملكه الأعراب وهم مضرون بهم غاية." ⁽²⁾. هذا فضلا عن وجود السقيفة "تسقيفت" بشكل منكسر له دور في منع المارة من النظر إلى داخل الدار. يضاف إلى ذلك فإنّ تصميم المراحيض يكون في أماكن بعيدة عن الغرف، وفي مواقع مضادة لاتجاه القبلة.

4.5- نظام التخزين في قصور الجنوب الغربي

يطلق على الغرفة التي تُخزن فيها مؤونة عيش العائلة القصورية من تمر، سمن، حبوب، وخضر يابسة.. لفترة طويلة اسم "المخزن" أو "بيت التخزين"، وهي بمثابة مستودع الغذاء السنوي للعائلة. بفضل تقنية التخزين يمكن لسكان القصور الصمود لمدة طويلة أمام الاعتداءات الخارجية لما تحتويه من غذاء. ما لاحظناه هو استعمال الغرف خاصة تلك التي تقع في الطابق الأرضي كمخزن للمؤونة في قصور الجنوب الغربي، مع انعدام المطامير "الخاوية" أو المطمورة لعملية التخزين التي تنتشر في الجنوب الشرقي الجزائري. وتضم قصبات منطقة توات مخازن للحبوب، والتمور بداخلها بينما لا تتوفر قصبات منطقة قورارة التي تقطنها قبائل أمازيغية على تلك المخازن. وجرت العادة أن يتولى ربّ الأسرة الإشراف على مهمة التخزين والتوزيع بحسب الحاجة والظروف.

خاتمة

نخلص من هذا كلّهُ إلى أنّ القصور في منطقة الجنوب الغربي الجزائري شكلت معلما معماريا يُسائر البيئة الصحراوية ويتمشى ومناخها الحار، وخضعت هندسة القصر لنمط تفكير قاطنيه وظروفهم المعيشية والاجتماعية، وطبيعة المواد الأولية التي تسهل من تشييده من جهة، وحالة عدم الاستقرار الأمني التي عاشتها الصحراء من جهة أخرى. لذلك كله فقد ارتكزت حياة المجتمع القصورى على أنظمة تضبط علاقات الأفراد داخل وخارج القصر.

1- بيدي محمد، نفس المرجع، ص.09.

2- عثمان عبد الساتر، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 188، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص.125.

ونلمس من خلال دراستنا لمواقع تلك القصور درجة التطور الفكري والحضاري وحوار الثقافات داخل المجتمعات القصورية بعنصرها الأمازيغي والعربي، إذ نجد أنّ غالبية قصور المنطقة قد شُيّدت على ضفاف الأودية أو أماكن توفر المياه. كما تتوفر هذه القصور على عناصر عمرانية ومعمارية تدل على التنوع والثراء لسكان الصحراء عموماً، رغم وصفهم بالبداءة تارة والتوحش تارة أخرى.

تجسد التكوين العمراني العام للقصور الصحراوية على أساس تفاعل مجموعة من العوامل الاجتماعية، الثقافية، ووفق تقاليد حضارية مستمدة من تعاليم الإسلام، بُنيت على مبدأ الحرمة واحترام الآخر، وظهر ذلك جلياً من خلال مساكن وأحياء القصر التي تُبرز صفات التضامن والتراسل وكأشكالها كتلة واحدة، وظهر أيضاً في خصوصية وهوية المنشآت الدينية والمدنية في القصر. ومن ثمّ فإنّ عامل المركزية بالقصر يُعدّ تعبيراً واضحاً على مركزية المعتقد وأهميته في حياة المجتمع، كما يدل على تماسك وحدة ساكني القصر وتضامنهم. كما نلاحظ دوام حضور مبدأ الحرمة ذات الدلالة العميقة في تصميم وتخطيط القصور الصحراوية.

قائمة المصادر والمراجع

المخطوطات

- 1- التازي علي عبد القادر، منهل الظمآن ومزيل الهموم والكرب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا محمد بن أبي زيان، مخطوط موجود بخزانة الزاوية القندوسية ولاية بشار، الجزائر، غير مصنف.
- 2- أبو العباس أحمد الشيخ بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي السجلماسي (ت 1175هـ/1761م)، التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، مخطوط غير مصنف غير تام من 29 صفحة، خزانة الشيخ عبد الله البلالي، كوسام، أدرار.

المصادر

- 3- البكري، أبي عبيد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- 4- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد، كتاب تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج1، دار الكتاب اللبناني، لجنة البيان العربي، لبنان، 1981.
- 5- ابن بطوطة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج2، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1928.

المراجع بالعربية

- 6- الجيلالي، عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الثقافة العربية، بيروت، 1980.
- 7- حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، 1997.

- 8- عثمان عبد الساتر، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 188، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 9- روس أدان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912، ترجمة أحمد بوحسن، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006.

المراجع بالفرنسية

- 10- Basset René (M), Note de Lexicographie Berbère, Extrait Du Journal Asiatique 8^{ème} Série, Tome, 1886.

- 11- Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, Tome XVIII ; ORAN, Imprimerie Typographique et Lithographique L.FOUQUE,1898, 383 p.(p 264)
- 12- Camps. les Berbères Aux Marges de L'Histoire .Ed.des Hespérides, 1980,
- 13-De Lamartinière et N.Lacroix, Documents Pour Servir à L'Etude du Nord-Ouest Africain, Tome 2.Imprimerie La Maison, L.Daniel, de Lille, 28 Février1896,
- 14- Flamand, G.B.M, Les Pierres Ecrites, Gravières, et Inscription Rupestres Du Nord Africain, Paris, 1921.
- 15- Gautier, E.F, Le Sahara Oranais, Annales De Géographie, V.12, B.S.G.A.O,1903.
- 16- Gautier, E.F, Le Sahara, Payot, Paris,1923.
- 17- Jacquot (F) ,Expédition Du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien Gide et Baudry ; Librairie, Editeur, Paris, 1849.
- 18- Martin, A.G.P H, Les Oasis Sahariennes, challamel. Paris, France, 1908.

المقالات

- 19- Jeans Despois, «La Bordure Saharienne De L'Algérie Oriental »,Revue Africaine, N°86.1942.p.207.
- 20-Memmeson (E), « Ksour du Tafilalt », Revue de Géographie du Maroc. N°08 .1965.

الرسائل الجامعية والموسوعات

- 21- بيدي محمد، التحصينات الدفاعية لقصور منطقة العين الصفراء، دراسة معمارية وأثرية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر2، 2015.
- 22- جمال الدين محمد ابن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت711هـ/1311م)، لسان العرب.ج2، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت،1992.
- 23- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، جامعة الجزائر، 1977.
- 24- Gourham (André le roi), Dictionnaire Préhistoire, Paris, Presses Universitaire Des France, 2005.